□ عُلُوُّ الهِمَّة في الرِّعايةِ □

و « الرعاية » : منزلةٌ من منازل ﴿ **إيَّاك نعبُدُ وإيّاك نستعين** ﴾ .

قال ابن القيم : « وهي مراعاة العلْم وحفْظُه بالعمل ، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص ، وحفظه من المُفسدَات ، ومراعاة الحال بالموافقة ، وحفظه بقطع التفريق . فالرعاية صيانة وحفْظ .

ومراتب العلْم والعَمَلِ ثلاثة :

« رواية » : وهي مجرَّد النقل وحمْل المرويّ .

و« دِرَاية » : وهي فهْمُهُ وتعقُّل معناه .

و« رعاية » : وهي العمل بموجَب ما علمه ومقتضاه .

فالنَّقَلَة هِمَّتهم الرواية ، والعلماء هِمَّتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية .

وقد ذمَّ الله مَن لم يرْعَ ما اختاره وابتدَعَه من الرهبانية حقَّ رعايته ؛ فقال تعالى : ﴿ **وجعلنا في قلوبِ الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيَّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلَّا ابتغاءَ رِضوانِ الله فما رعوْها حقَّ رعايتها** ﴾ [الحديد : ٢٦] .

فالله سبحانه وتعالى ذمَّ مَن لم يَرْع قرْبةً ابتدعها لله تعالىٰ حقَّ رعايتها ، فكيف بمَن لم يرْعَ قُرْبةً شرَعَها الله لعباده ، وأذِن بها وحثَّ عليها ؟! »[(١)] .

قال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري : « الرعاية : صوْنٌ بالعناية . وهي على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : رعايةُ الأعمال .

والثانية : رعايةُ الأحوال .

والثالثة : رعايةُ الأوْقات »..

---

(١) مدارج السالكين ٢/٦٠ - ٦١ .

الدرجة الأولى : رعَاية الأعمال :

« فأمَّا رعاية الأعمال : فتوفيرها بتحقيرها ، والقيامِ بها مِن غير نظَرٍ إليها ، وإجراؤها على مجرى العلم ، لا على التزيُّن بها » .

قال ابن القيِّم : « قوله : « أمَّا رعاية الأعمال : فتوفيرها بتحقيرها » :

فالتوفير : سلامة مِن طرَفي التفريط بالنقص ، والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها .

وأما تحقيرها : فاستصغارها في عينه واستقلالها ، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمرٌ آخر ، وأنه لم يُوَفِّه حقَّه ، وأنه لا يرضى لربه بعمله ، ولا بشيء منه .

وقد قيل : علامة رضا الله عنك : إعراضك عن نفسك . وعلامة قبول عملك : احتقاره واستقلاله ، وصغره في قلبك ، حتى إنَّ العارف لَيستغفر الله عقيبَ طاعته ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من الصلاة ، استغفرَ الله ثلاثًا . وأمَر الله عباده بالاستغفار عقيبَ الحجِّ . ومدحَهم على الاستغفار عقيبَ قيام الليل . وشرع النبي ﷺ عقيبَ الطهور التوبةَ والاستغفار .

فمن شهِد واجب ربِّه ، ومقدار عمله ، وعيْبَ نفسه : لم يجدْ بُدًّا من استغفار ربِّه منه ، واحتقارِه إيَّاه واستصغاره .

وأمَّا « القيام بها » : فهو توفيتُها حقَّها ، وجعْلُها قائمة ؛ كالشهادة القائمة ، والصلاة القائمة ، والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة .

وقوله : « مِن غير نظَر إليها » : أي من غير أن يلتفتَ إليها ويعدِّدها ويذكرها؛ مخافة العجْب والمِنَّة بها ، فيسقط من عيْن الله ، ويحبَط عمله .

وقوله : « وإجراؤها على مجرى العلم » : هو أن يكون العمل على مقتضى العلم المأخوذ من مِشكاة النبوة ، إخلاصًا لله وإرادةً لوجهه وطَلَبًا لمرضاته ، لا على

وجْهِ التزيُّن بها عند الناس .

الدرَجَةُ الثانيةُ : رِعَايةُ الأحوال :

« أنْ يَعدَّ الاجتهادَ مراءَاةً ، واليقينَ تشبُّعًا ، والحالَ دعوىٰ » :

قال ابن القيِّم : أي يتهم نفسه في اجتهاده : أنه راءَى الناس ، فلا يطغىٰ به ، ولا يسكن إليه ، ولا يعتدُّ به .

وأما عدُّه اليقينَ تشبُّعًا : فالتشبُّع : افتخار الإنسان بما لا يملكه ، ومنه قول النبي ﷺ : « المتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زُور » .

وعدُّ اليقينِ تشبُّعًا : يحتمل وجهْين :

أحدهما : أن ما حصل له من اليقين لم يكن به ، ولا منه ، ولا استحقَّه بعِوَض ، وإنما هو فضل الله وعطاؤه ، ووديعته عنده ، ومجرَّد منَّته عليه . فهو خلعة خلَعها سيِّده عليه ، والعبد وخِلْعته ملْكُه وله . فما للعبد في اليقين مدخل ، وإنما هو متشبِّع بما هو مِلْك لله وفضله ومِنَّته على عبده .

والوجه الثاني : أن يتهم يقينه ، وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي ، بل ما حصل له منه هو كالعارية لا المِلْك المستقرّ ، فهو متشبِّع بزعْم نفسه بأن اليقين ملْكُه وله . وليس كذلك . وهذا لا يختص باليقين ، بل بسائر الأحوال ؛ فالصادق يعدُّ صدقه تشبُّعًا ، وكذا المخلص يعدُّ إخلاصه ، وكذا العالم ؛ لاتهامه لصدْقه وإخلاصه وعلْمه وأنه لم ترسخ قدمه في ذلك ، ولم يحصل له فيه مَلَكَة . فهو كالمتشبِّع به .

ولمَّا كان « اليقين » روح الأعمال وعمودها ، وذروة سنامها ، خصَّه بالذكْر ، تنبيهًا على ما دونه .

والحاصل : أنه يتهم نفسه في حصول اليقين ، فإذا حصل فليس حصوله به ولا منه ، ولا له فيه شيء ، فهو يذمُّ نفسه في عدم حصوله ، ولا يحمدها عند حصوله .

وأما عدُّ الحال دعوىٰ : أي دعوى كاذبة ، اتهامًا لنفسه ، وتطهيرًا لها من رعونة الدعوى ، وتخليصًا للقلب مِن نصيب الشيطان ؛ فإنَّ الدعوى من نصيب الشيطان ، وكذلك القلب الساكن إلى الدعوى مأوى الشيطان . أعاذنا الله من الدعوى ومن الشيطان .

الدرجة الثالثة : رعاية الأَوْقات :

« أنْ يقف معَ كلِّ خطوة .

ثم أن يغيب عن حضوره بالصفاء من رسْمه .

ثم أن يذهب عن شهود صفوِ صفوه » .

قال ابن القيم : « أي يقف مع حركة ظاهره وباطنه بمقدار تصحيحها ، نيةً وقصدًا وإخلاصًا ومتابعة ؛ فلا يخطو هجْمًا وهمَجًا ، بل يقف قبل الخطوِ حتى يصحِّحَ الخطوة ، ثم ينقل قدَم عزْمِه ، فإذا صحَّت له ونقل قدمَه انفصل عنها ، وقد صحَّت الغيبة عن شهودها ورؤيتها ، فيغيب عن شهود تقدُّمه بنفسه ؛ فإن رسمه هو نفسُه . فإذا غاب عن شهود نفسه وتقدُّمه بها في كلِّ خطوة ، فذلك عيْن الصفاء من رسْمه الذي هو نفسه ، فعند ذلك يشاهد فضْلَ ربه .

ولما كانتِ النفس محلَّ الأكدار ، سُمِّي انفصاله عنها : صفاءً . وهذه الأمور تستدعي لطفَ إدراكٍ ، واستعدادًا من العبد ، وذلك عيْن المنَّة عليه .

وأما ذَهابه عن شهود صفوه : أي لا يستحضره في قلبه ، ويشهد ذلك الصفو المطلوب ، ويقف عنده ؛ فإن ذلك من بقايا النفس وأحكامها ، وهو كدَر ، فإذا تخلص من الكَدَر لا ينبغي له الالتفات والرجوع إليه ، فيصفو من الرسْم ويغيب عن الصفو ، بمشاهدة المطلب الأعلى ، والمقصد الأَسْنىٰ » .

* * *